لِلدَّاخِلِ لِلْجُلُوسِ فِي حُجَيْرَتِي الصَّغِيرَةِ — حُجَيْرَةِ الْقُبْطَانِ — لِلتَّفْكِيرِ فِي الْخَيَارَاتِ الْمُتَاحَةِ أَمَامَنَا.

سَمِعْتُ قَصُوري يُنَادِينِي مِنَ الْخَارِجِ: «يَا روبنسون! أَرَى سَفِينَةً! أَرَى سَفِينَةً!»

وَكَانَتْ حَقِيقَةً، هُنَاكَ سَفِينَةٌ! وَبَدَتْ بُرْتُغَالِيَّةً. أَخَذْتُ الْمِنْظَارَ وَبَدَأْتُ أَنْظُرُ بِتَمَعُّنٍ لِأَرَى إِذَا كَانَتْ مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّاطِئِ. يَا لَلْخَسَارَةِ، لَمْ نَكُنْ مَحْظُوظَيْنِ بِمَا يَكْفِي، فَالسَّفِينَةُ كَانَتْ تُبْحِرُ بَعِيدًا عَنَّا.

فَجَالَ فِي خَاطِرِي: «أَوَّاهُ، لَا! لَنْ أَدَعَهُمْ يَذْهَبُونَ دُونَ أَنْ أُحَاوِلَ عَلَى الْأَقَلِّ أَنْ أَجْذِبَ انْتِبَاهَهُمْ.»

قُلْتُ صَائِحًا: «هَيَّا، يَا قَصُوري! دَعْنَا نُحَاوِلُ وَنَلْحَقُ بِهِمْ.» وَرَفَعْنَا أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْأَشْرِعَةِ يُمْكِنُ لِمَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ بِهِ، وَلَاحَقْنَا السَّفِينَةَ بِأَكْبَرِ سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ، لَكِنْ سَرِيعًا مَا اتَّضَحَ أَنَّنَا لَنْ نَلْحَقَ بِهِمْ أَبَدًا.

وَتَسَاءَلَ قَصُوري: «مَاذَا نَفْعَلُ الْآنَ، يَا روبنسون؟»

قُلْتُ: «الْبَنَادِقُ! عَلَيْنَا أَنْ نُطْلِقَ النَّارَ مِنَ الْبَنَادِقِ وَنَأْمُلُ أَنْ يَسْمَعُونَا!»

هُرِعَ كُلٌّ مِنَّا إِلَى بَنَادِقِنَا وَبَدَأْنَا فِي إِطْلَاقِ النَّارِ، وَتَمَنَّيْتُ وَدَعَوْتُ أَنْ تَسْمَعَ السَّفِينَةُ الْأُخْرَى إِشَارَةَ الِاسْتِغَاثَةِ.

لَمْلَمَتِ السَّفِينَةُ الْأُخْرَى أَشْرِعَتَهَا وَأَبْطَأَتِ السَّيْرَ! فَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً لِقَصُوري وَقُلْتُ: «لَقَدْ سَمِعُوا طَلَقَاتِنَا! سَوْفَ يَنْتَظِرُونَنَا. هَيَّا بِنَا، لِنَذْهَبْ!»

اسْتَغْرَقْنَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ لِنَلْحَقَ بِهِمْ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا بِمُحَاذَاتِهِمْ، صَاحَ الرِّجَالُ مِنْ عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ يُكَلِّمُونَنَا بِلُغَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ أَوَّلًا حَاوَلُوا بِالْبُرْتُغَالِيَّةِ، وَبَعْدَهَا الْإِسْبَانِيَّةِ، ثُمَّ الْفَرَنْسِيَّةِ، لَكِنَّنَا لَمْ نَسْتَطِعْ فَهْمَ أَيٍّ مِنْهَا، وَأَخِيرًا تَكَلَّمَ بَحَّارٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ مِنْ عَلَى سَفِينَتِهِمْ صَائِحًا: «مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَاذَا حَدَثَ؟»

شَرَحْتُ لَهُ أَنَّنِي كُنْتُ بَحَّارًا إِنْجِلِيزِيًّا وَأَسَرَنِيَ الْقَرَاصِنَةُ، وَقُلْتُ لَهُ إِنَّنِي قَضَيْتُ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَةَ الْمَاضِيَةَ فِي الْأَسْرِ كَعَبْدٍ، وَانْبَهَرَ الْبَحَّارَةُ مِنْ تَمَكُّنِنَا مِنَ الْهَرَبِ، فَأَخَذُونِي أَنَا وَقَصُوري عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ، وَأَخِيرًا نَجَوْنَا!

كَانَ قُبْطَانُ السَّفِينَةِ طَيِّبًا جِدًّا، فَعِنْدَمَا عَرَضْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا أَمْلِكُ مِنْ أَشْيَاءَ مُقَابِلَ رِحْلَةٍ آمِنَةٍ إِلَى الْبَرَازِيلِ، ابْتَسَمَ وَقَالَ: «سَآخُذُكُمْ مَعِي إِلَى الْبَرَازِيلِ، وَلَا دَاعِيَ لِدَفْعِ مُقَابِلٍ.»

شَكَرْتُهُ عَلَى طِيبَتِهِ، وَكَانَ الْقُبْطَانُ كَذَلِكَ رَحِيمًا جِدًّا مَعَ قَصُورِي وَأَعْطَاهُ فِي الْحَالِ وَظِيفَةَ بَحَّارٍ عَلَى السَّفِينَةِ، مِمَّا أَسْعَدَ قَصُورِي أَيَّمَا سَعَادَةٍ. وَعِنْدَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَنْ تَتَّسِعَ لِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، عَرَضَ عَلَيْنَا شِرَاءَ مَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ! فَوَافَقْتُ عَلَى عَرْضِهِ فِي الْحَالِ، وَإِضَافَةً إِلَى الْمَرْكَبِ، اشْتَرَى بَعْضَ عَتَادِنَا الْآخَرَ أَيْضًا.

حَظِينَا بِرِحْلَةٍ آمِنَةٍ وَسَعِيدَةٍ إِلَى الْبَرَازِيلِ، وَحَصَلْتُ عَلَى الْمَالِ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ مُفْلِسًا تَمَامًا عَلَى أَرْضٍ غَرِيبَةٍ لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَايَ مِنْ قَبْلُ. وَأَقَمْتُ مَعَ أَحَدِ أَصْدِقَاءِ الْقُبْطَانِ، وَكَانَ يَمْتَلِكُ وَيُدِيرُ مَزْرَعَةً كَبِيرَةً لِلسُّكَّرِ، وَبَدَا عَمَلُ زِرَاعَةِ السُّكَّرِ شَائِقًا فِي رَأْيِي؛ لِذَا حَاوَلْتُ التَّعَلُّمَ قَدْرَ مَا اسْتَطَعْتُ.

اسْتَهْوَتْنِي حَيَاةُ الزِّرَاعَةِ، وَبِالْمَالِ الَّذِي أَخَذْتُهُ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، اشْتَرَيْتُ قِطْعَةَ أَرْضٍ كَبِيرَةً وَجَيِّدَةً، وَخَطَّطْتُ لِإِقَامَةِ مَزْرَعَةِ سُكَّرٍ مِثْلِ الْمَزْرَعَةِ حَيْثُ كُنْتُ أُقِيمُ. وَكَانَتْ فُرَصِي عَظِيمَةً فِي الْبَرَازِيلِ، لَكِنْ لِكَيْ أَبْقَى كُنْتُ أَحْتَاجُ لِخَطَابِ تَجْنِيسٍ، وَكَمَا عَرَفْتُ لَمْ يَكُنْ الْحُصُولُ عَلَيْهِ عَسِيرًا.

الفصل التاسع

حَيَاةُ الزِّرَاعَةِ

عَلَى مَدَى السَّنَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ، تَوَسَّعَتْ رُقْعَةُ أَرَاضِيَّ وَزَادَتْ مَحَاصِيلِي، وَلَكِنَّ إِنْتَاجِي كَانَ قَلِيلًا، وَكَانَ بِالأَسَاسِ يَسُدُّ حَاجَتِي وَحَاجَةَ طَاقَمِ الْعَمَلِ مِنَ الْغِذَاءِ وَيُحَافِظُ عَلَى صِحَّتِنَا. وَمَعَ هَذَا، بَدَتْ بَشَائِرُ النَّجَاحِ مُبْهِرَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا بِتَقَدُّمِي حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ.

كَانَ هُنَاكَ شَابٌّ صَغِيرٌ يَمْتَلِكُ الْمَزْرَعَةَ الْمُجَاوِرَةَ لِمَزْرَعَتِي، وَكَانَ بُرْتُغَالِيًّا بِالْمِيلَادِ، وَلَكِنَّ أَبَوَيْهِ كَانَا إِنْجِلِيزِيَّيْنِ، وَكَانَ يُدْعَى ويلز. أَصْبَحْنَا صَدِيقَيْنِ عَزِيزَيْنِ، بَلْ وَحَتَّى جَارَيْنِ فَاضِلَيْنِ. وَعَلَى مَدَى هَاتَيْنِ السَّنَتَيْنِ، نَمَتْ مَزَارِعُنَا بِنَفْسِ السُّرْعَةِ تَقْرِيبًا، فَكَانَ كُلٌّ مِنَّا يُجِيدُ طَرِيقَتَهُ فِي امْتِلَاكِ مَزَارِعِ قَصَبِ سُكَّرٍ نَاجِحَةٍ.

كُنْتُ أَنَا وَويلز فِي الْعَادَةِ نَسِيرُ فِي جَوْلَاتٍ طَوِيلَةٍ مَعًا. تَحَدَّثْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ: مَزَارِعِنَا وَخُطَطِنَا لِلْمُسْتَقْبَلِ وَمَاضِينَا، وَأَذْكُرُ أَنَّنِي أَخْبَرْتُهُ يَوْمًا مَا أَنَّنِي أَشْعُرُ كَأَنِّي رَجُلٌ عَلِقَ فِي جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ هُنَاكَ فِي الْبَرَازِيلِ، وَأَخْبَرْتُهُ عَنْ وَالِدِي، وَعَنْ مَدَى اشْتِيَاقِي إِلَيْهِ هُوَ وَوَالِدَتِي.

قَالَ إِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ أَفْتَقِدَ وَالِدَيَّ. وَكَانَ مُحِقًّا، فَكَانَ أَبِي لِيَسْعَدَ بِرُؤْيَتِي؛ إِذْ بَنَيْتُ حَيَاةً كَرِيمَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا فِيهَا وَآمِنًا، وَفِي طَرِيقِي لِأُصْبِحَ ثَرِيًّا.

جَنَيْنَا مَحْصُولًا جَيِّدًا فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ كَذَلِكَ. وَكَانَ لَدَيَّ كُلُّ مَا قَدْ يَتَمَنَّاهُ الْإِنْسَانُ؛ مَزْرَعَةٌ مُثْمِرَةٌ، وَمَالٌ، وَأَصْدِقَاءُ. لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ هَانِئًا؛ فَفِي عَمِيقِ قَلْبِي، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْمَشَاعِرَ سَتَنْتَصِرُ عَلَى الْمَنْطِقِ، فَنَزْعَتِي الْحَمْقَاءُ لِلْإِثَارَةِ غَالِبًا مَا تَكُونُ لَهَا الْغَلَبَةُ.

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، تَحَدَّثْتُ عَنْ مُغَامَرَاتِي فِي الْبَحْرِ لِأَيِّ شَخْصٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَمِعَ، وَمَعَ كُلِّ مَرَّةٍ أَرْوِي فِيهَا الْحِكَايَاتِ، تَكْبُرُ الْقِصَصُ. وَاسْتَحْوَذَ الاهْتِمَامُ الشَّدِيدُ بِرِحْلَاتِي عَلَى

مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَزَارِعِ الْآخَرِينَ، فَحَمَّسَتْهُمُ الْفُرْصَةُ فِي أَنْ يُصْبِحُوا أَكْثَرَ ثَرَاءً. وَعَاجِلًا، وَضَعْنَا الْخُطَطَ لِتَجْهِيزِ سَفِينَةٍ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ إِلَى أَفْرِيقْيَا.

عَرَفْتُ بِقَلْبِي أَنَّ هَذَا الْقَرَارَ أَحْمَقُ، لَكِنَّهُ مَا إِنْ دَخَلَ حَيِّزَ التَّنْفِيذِ كَحَجَرٍ بَدَأَ فِي التَّدَحْرُجِ لِأَسْفَلِ تَلٍّ، لَمْ يَكُنْ بِيَدِي حِيلَةٌ لِإِيقَافِهِ. فَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَزِيدَ ثَرْوَتِي، وَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأُغَيِّرَ حَيَاتِي، وَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَيِّ مُغَامَرَةٍ، بَلْ كُنْتُ أَنَا مَنْ دَمَّرَ نَفْسِي. وَلَمْ أَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ الْعَرْضِ، مِثْلَمَا رَفَضْتُ الْإِصْغَاءَ لِوَالِدِي مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ.

تَحَدَّدَتْ تَوَارِيخُ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَبَعْدَهَا بِوَقْتٍ وَجِيزٍ كَانَتِ السَّفِينَةُ جَاهِزَةً لِلانْطِلَاقِ. وَوَضَعْنَا خُطَطَ التِّجَارَةِ الرَّسْمِيَّةَ وَكَتَبْتُ وَصِيَّةً، وَتَرَكْتُ ويلز مَسْئُولًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَاثِقًا أَنَّهُ سَيَعْتَنِي بِمَزْرَعَتِي أَثْنَاءَ غِيَابِي.

الفصل العاشر

أَفْرِيقْيَا مِنْ جَدِيدٍ

صَعِدْتُ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ فِي الأَوَّلِ مِنْ سِبْتَمْبِرَ ١٦٥٩، بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ بِالضَّبْطِ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي قُمْتُ فِيهِ بِرِحْلَتِي الأُولَى الْمَشْئُومَةِ مِنْ هَالْ، لَكِنِّي حَاوَلْتُ أَلَّا أُفَكِّرَ بِهَذَا، فَلَمْ أُرِدْ أَنْ أُنْحِسَ رِحْلَتِي.

حَمَلَتِ السَّفِينَةُ ١٢٠ طُنًّا مِنَ الْمُؤَنِ، وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، إِضَافَةً إِلَى الْقُبْطَانِ، وَخَادِمِهِ، وَأَنَا. وَلَمْ تَكُنْ حَمُولَتُنَا كَبِيرَةً عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، فَقَطْ مَا أَرَدْنَا مُقَايَضَتَهُ مَعَ الْأَفَارِقَةِ.

عِنْدَمَا بَدَأْنَا الرِّحْلَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانَ الطَّقْسُ رَائِعًا، فَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ، وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ فِي الِاتِّجَاهِ الْمُوَاتِي بِالضَّبْطِ. وَسَلَكْنَا طَرِيقَنَا شَمَالًا، قَاصِدِينَ الْإِبْحَارَ إِلَى أَفْرِيقْيَا، حَيْثُ وَصَلْنَا إِلَى دَائِرَةِ عَرْضٍ عَشْرٍ أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَرَجَةً.

ضَرَبَتْنَا عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ بَعْدَ إِبْحَارِنَا بِاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، فَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَاسَكَ بَيْنَمَا تَتَقَاذَفُ الْعَاصِفَةُ السَّفِينَةَ هُنَا وَهُنَاكَ. فَقَدْنَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ أَثْنَاءَ هَذَا الْإِعْصَارِ؛ فَمَاتَ أَحَدُهُمْ مِنَ الِالْتِهَابِ الرِّئَوِيِّ، وَجَرَفَتِ الْمِيَاهُ الِاثْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ مِنْ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْعَاصِفَةُ تَعْصِفُ بِنَا لِأُسْبُوعَيْنِ مُتَوَاصِلَيْنِ، وَمَلَأَ الرُّعْبُ قُلُوبَنَا.

بَعْدَ مُرُورِ مَا بَدَا لَنَا دَهْرًا، هَدَأَ الطَّقْسُ أَخِيرًا، لَكِنَّنَا قُذِفْنَا بَعِيدًا عَنْ مَسَارِنَا وَأَرَادَ الْقُبْطَانُ مَعْرِفَةَ مَكَانِنَا الْحَالِيِّ، فَقَضَيْتُ سَاعَاتٍ فِي حُجْرَةِ الْقُبْطَانِ، أُحَاوِلُ مَعَهُ تَقْرِيرَ مَاذَا نَفْعَلُ؛ رَاجَعْنَا خَرَائِطَنَا، وَرُسُومَنَا الْبَحْرِيَّةَ، وَرُسُومَنَا الْبَيَانِيَّةَ.

قَالَ الْقُبْطَانُ بَعْدَ تَفْكِيرٍ مُتَمَعِّنٍ: «رُبَّمَا يَتَحَتَّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْنَا.»

أَجَبْتُهُ: «لَكِنَّنَا بَعِيدُونَ جِدًّا عَنِ الْمَسَارِ، لَعَلَّ مِنَ الْأَسْلَمِ أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى جُزُرِ الْكَارِيبِي، فَعَلَى الْأَقَلِّ يُمْكِنُنَا هُنَاكَ إِعَادَةُ تَهْيِئَةِ السَّفِينَةِ، وَقَدْ نَجِدُ اثْنَيْنِ مِنَ الْبَحَّارَةِ يَرْغَبَانِ فِي الِانْضِمَامِ لِطَاقِمِنَا.»

نَظَرَ بِعِنَايَةٍ فِي الْوَرَقِ عَلَى مِنْضَدَتِهِ وَقَالَ: «هَذَا صَحِيحٌ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا فِي الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْقَادِمَةِ. وَأَظُنُّ أَنَّكَ مُحِقٌّ، هَذِهِ هِيَ أَفْضَلُ الْخُطَطِ.»

وَأَخْبَرَ الْقُبْطَانُ طَاقَمَ السَّفِينَةِ أَنَّنَا مُتَّجِهُونَ إِلَى الْكَارِيبِي، وَغَيَّرْنَا مَسَارَنَا فِي حِينِهِ. وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مُتَضَرِّرَةً بِشِدَّةٍ، وَيَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلَيْهَا بِكَثْرَةٍ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ، فَكُنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ بُلُوغِنَا باربادوس فِي غُضُونِ أُسْبُوعَيْنِ تَقْرِيبًا.

الفصل الحادي عشر

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

خِلَالَ يَوْمَيْنِ مِنْ تَغْيِيرِنَا لِلْمَسَارِ، هَبَّتْ عَاصِفَةٌ أُخْرَى، وَقَذَفَتْنَا الرِّيَاحُ بَعِيدًا — تِجَاهَ أَقْصَى الْغَرْبِ — وَمِنْ جَدِيدٍ، ضَلَلْنَا طَرِيقَنَا تَمَامًا فِي الْبَحْرِ.

اسْتَمَرَّتِ الرِّيَاحُ تَعْصِفُ بِقُوَّةٍ حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِي، بَلْ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَلِيهِ. وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، سَمِعْتُ أَحَدَ الرِّجَالِ يَصِيحُ: «مَرْحَى، أَرْضٌ!»

وَفِي لَحْظَتِهَا تَقْرِيبًا ارْتَطَمْنَا بِمُرْتَفَعٍ رَمْلِيٍّ، وَتَأَرْجَحَتِ السَّفِينَةُ بِعُنْفٍ لِلْخَلْفِ وَالْأَمَامِ، وَفَاضَتْ عَلَيْنَا مِيَاهُ الْبَحْرِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّنَا هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ. فَجَرَيْنَا إِلَى الْحُجُرَاتِ لِنَحْتَمِيَ بِهَا، وَكُنَّا فِي مَوْقِفٍ عَصِيبٍ، فَلَمْ نَكُنْ نَدْرِي أَيْنَ كُنَّا، وَلَا نَدْرِي مَا إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ مَأْهُولَةً أَمْ لَا، وَلَا نَدْرِي هَلْ سَنَنْجُو أَمْ لَا.

عَلِقَتِ السَّفِينَةُ، وَبَاتَ مِنَ الْمُؤَكَّدِ تَحَطُّمُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ، إِنْ لَمْ تُغَيِّرِ الرِّيَاحُ اتِّجَاهَهَا فِي الْحَالِ. نَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ وَهَيَّأْنَا أَنْفُسَنَا لِلْأَسْوَأِ. وَكُنَّا جَمِيعًا مُبَلَّلِينَ بِالْمَاءِ وَنَرْتَجِفُ، وَأَصَابَ الْفُتُورُ أَرْوَاحَنَا مِنْ جَرَّاءِ أَحْدَاثِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ. ثُمَّ، حَدَثَ التَّغْيِيرُ فِي الرِّيَاحِ.

قَالَ الْقُبْطَانُ: «لَدَيْنَا فُرْصَةٌ الْآنَ، يَا شَبَابُ! دَعُونَا نُنْزِلِ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ إِلَى الْبَحْرِ وَنُجَدِّفْ إِلَى الشَّاطِئِ. فَهَذَا هُوَ أَمَلُنَا الْوَحِيدُ!»

وَبَعْدَمَا كَانَ لَدَيْنَا قَارِبَانِ صَغِيرَانِ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، لَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ مُنْذُ الْإِعْصَارِ الْأَوَّلِ. وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ بَذْلَ مَجْهُودَاتٍ شَاقَّةٍ كَيْ نَسْتَطِيعَ فَقَطْ إِنْزَالَ الْقَارِبِ

بِسَلَامَةٍ إِلَى الْبَحْرِ وَجَمِيعِ الرِّجَالِ إِلَى سَطْحِهِ. وَتَلَاطَمَتِ الْأَمْوَاجُ حَوْلَنَا بَيْنَمَا كُنَّا نُجَدِّفُ بِاسْتِمَاتَةٍ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكُنَّا تَحْتَ رَحْمَةِ الْقَدَرِ، فَدَعَا الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ حَتَّى نَنْجُوَ.

كَانَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنَّا هُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ، سَوَاءٌ أَكَانَ صَخْرِيًّا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، آمِنًا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَمْ نُبَالِ. فَجَدَّفْنَا بِجُهْدٍ شَدِيدٍ لِأَنَّ حَيَاتَنَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ هِيَ أَنْ نَجِدَ خَلِيجًا أَوْ فَمَ نَهْرٍ؛ فَبِدُونِ هَذَا سَنَنْجَرِفُ إِلَى الْعَاصِفَةِ وَنَضِيعُ فِي الْبَحْرِ. كُنَّا نُرِيدُ الْعُثُورَ عَلَى مَاءٍ هَادِئٍ لِنَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ لِشَاطِئِ السَّلَامَةِ.

جَدَّفْنَا لِمَا يُقَارِبُ الْفَرْسَخَ وَنِصْفَ الْفَرْسَخِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ مَوْجَةٌ عَالِيَةٌ عُلُوَّ الْجَبَلِ بِاتِّجَاهِنَا، وَضَرَبَتِ الْقَارِبَ سَرِيعًا، فَقُذِفْنَا جَمِيعًا مِنْ عَلَى الْقَارِبِ، وَابْتَلَعَتْنَا الْمِيَاهُ بِالْكَامِلِ فِي لَحْظَةٍ.

كَانَ الْأَمْرُ مُرْعِبًا؛ إِذْ كَانَتِ الْأَمْوَاجُ قَوِيَّةً، وَمَعَ أَنِّي سَبَّاحٌ مَاهِرٌ، إِلَّا أَنْ ذِرَاعَيَّ لَمْ تَكُونَا بِالْقُوَّةِ الَّتِي تُضَاهِي قُوَّةَ الْمِيَاهِ، بَلْ إِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعِ الصُّعُودَ لِسَطْحِ الْمَاءِ لِأَلْتَقِطَ أَنْفَاسِي. وَحَمَلَتْنِي الْمِيَاهُ لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، وَامْتَلَأَتْ رِئَتَايَ بِالْمَاءِ، فَبَدَأْتُ أَسْعُلُ، لَكِنَّنِي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّنِي إِنْ لَمْ أَزْحَفْ لِلْأَمَامِ، فَلَنْ يَكُونَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي النَّجَاةِ.

وَقَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ، جَذَبَنِي الْمَوْجُ بَيْنَ بَرَاثِنِهِ وَأَلْقَى بِي ثَانِيَةً إِلَى الْبَحْرِ. وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَدُورُ مِنْ حَوْلِي فِي دَوَّامَةٍ بَيْنَمَا كُنْتُ أُصَارِعُ كَيْ لَا أَغْرَقَ. وَفِي لَحْظَتِهَا تَقْرِيبًا، شَعَرْتُ بِقَدَمِي تَلْمَسُ الْقَاعَ، فَوَقَفْتُ مِنْ فَوْرِي، وَأَخَذْتُ أُدْخِلُ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْهَوَاءِ إِلَى رِئَتَيَّ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْبَحْرُ وَيَجُرَّنِي ثَانِيَةً إِلَى الْأَسْفَلِ.

وَفِي ثَالِثِ أَوْ رَابِعِ مَرَّةٍ يَجُرُّنِي فِيهَا الْبَحْرُ لِلْأَسْفَلِ، اصْطَدَمَ صَدْرِي بِصَخْرَةٍ وَتَوَقَّفَ تَنَفُّسِي بِالْكَامِلِ.

وَفَكَّرْتُ: «هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ، سَأَمُوتُ هُنَا، سَأَمُوتُ الْآنَ.»

وَمَعَ كُلِّ حَظِّيَ الْعَاثِرِ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ لَدَيَّ مَوْهِبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بِالْفِعْلِ؛ مَوْهِبَةُ النَّجَاةِ. فَفِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي دَفَعَنِي التَّيَّارُ فِيهَا لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، اسْتَجْمَعْتُ كُلَّ قُوَايَ، وَلَمَسَتْ قَدَمَايَ الْقَاعَ، وَدَفَعْتُ بِنَفْسِي لِلنُّهُوضِ خَارِجَ الْمِيَاهِ وَجَرَيْتُ بَعِيدًا عَلَى الشَّاطِئِ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي. فَجَرَيْتُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ فِيَّ مِنْ قُوَّةٍ، ثُمَّ نَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَجَعَلَتْنِي كُلُّ

10

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

الْمِيَاهِ الْمَالِحَةِ فِي مَعِدَتِي أُصَابُ بِالْغَثَيَانِ لِدَقِيقَةٍ، لَكِنَّنِي نَجَوْتُ. وَكَفَانِي ذَلِكَ؛ فَمَا زِلْتُ حَيًّا.

الفصل الثاني عشر

جَزِيرَةُ الْيَأْسِ

مَا إِنْ أَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْوُقُوفِ، حَتَّى نَظَرْتُ حَوْلِي. أَيْنَ جَمِيعُ رِفَاقِي؟ هَلْ فُقِدُوا جَمِيعًا؟ هَلْ كُنْتُ أَنَا النَّاجِيَ الْوَحِيدَ؟ وَسَرِيعًا جِدًّا، تَكَشَّفْتُ حَقِيقَةَ مَوْقِفِي؛ فَكُلُّ مَا وَجَدْتُهُ مِنْهُمْ قَلَنْسُوَةٌ وَاحِدَةٌ، وَثَلَاثُ قُبَّعَاتٍ، وَحِذَاءَانِ.

صَرَخْتُ مُلْتَاعًا: «لَا! قُلْ إِنَّ الْوَضْعَ لَيْسَ كَمَا أَرَى! لَا يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ أَنَا النَّاجِيَ الْوَحِيدَ!»

بَقِيَ لِي شَيْءٌ مِنَ الْأَمَلِ وَقْتَئِذٍ، فَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي شَيْئًا عَنْ مَوْقِعِي، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مَلَابِسُ جَافَّةٌ، وَلَا مِيَاهُ شُرْبٍ وَلَا شَيْءٌ لِأَسْتَخْدِمَهُ فِي صَيْدِ طَعَامِي. فَمَعَ أَنِّي لَمْ أَغْرَقْ مِثْلَ بَاقِي رِفَاقِي مِنَ الْبَحَّارَةِ الْمَسَاكِينِ، إِلَّا أَنَّ أَمَلِي فِي النَّجَاةِ كَانَ وَاهِيًا. فَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمَوْجُودُ بِجَيْبِي هُوَ سِكِّينٌ صَغِيرَةٌ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ تُرْجَى مِنْ سِكِّينٍ وَاحِدَةٍ فِي مَكَانٍ غَرِيبٍ بِلَا مَأْوًى وَلَا طَعَامٍ؟

صَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. وَكَانَ حَالِي مَيْئُوسًا مِنْهُ؛ فَاللَّيْلُ يَهْبِطُ، وَكُنْتُ أَحْتَاجُ أَنْ أَجِدَ مَأْوًى، وَكَانَ يُوجَدُ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْجَارِ بَعْدَ مِنْطَقَةِ الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً. وَلَمْ أَسْتَغْرِقْ وَقْتًا طَوِيلًا كَيْ أَجِدَ شَجَرَةً تَبْدُو كَمَكَانٍ جَيِّدٍ لِلِاخْتِبَاءِ خِلَالَ اللَّيْلِ، فَتَسَلَّقْتُهَا وَوَجَدْتُ غُصْنًا مُرِيحًا. وَلَا بُدَّ أَنَّ الْمَوْقِفَ الْمُرِيعَ أَرْهَقَنِي بِلَا شَكٍّ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى قِسْطٍ ضَئِيلٍ مِنَ النَّوْمِ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئًا، وَتَوَقَّفَتِ الْعَاصِفَةُ. وَمَعَ أَنَّ الطَّقْسَ تَغَيَّرَ وَأَصْبَحَ مَاتِعًا، إِلَّا أَنَّ مَعْنَوِيَّاتِي وَحَالِي لَمْ يَتَحَسَّنَا كَثِيرًا. نَزَلْتُ مِنْ مَكَانِي الْعَالِي عَلَى الشَّجَرَةِ، وَعُدْتُ إِلَى الشَّاطِئِ.

وَصِحْتُ مُتَعَجِّبًا: «آهٍ يَا إِلَهِي!» فَالسَّفِينَةُ كَانَتْ عَالِقَةً فِي بَعْضِ الصُّخُورِ عَلَى بُعْدِ فَرْسَخٍ تَقْرِيبًا مِنَ الْمَكَانِ حَيْثُ جَرَفَتْنِي الْمِيَاهُ، وَلَمْ تَكُنْ مُحَطَّمَةً! فَلَوْ بَقِينَا فَقَطْ عَلَى سَطْحِهَا، لَنَجَوْنَا كُلُّنَا، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ التَّفْكِيرَ فِي هَذَا الْآنَ.

بَلْ جَالَ فِي خَاطِرِي: «الْآنَ، هَذَا يَبْعَثُ عَلَى الْأَمَلِ، فَكُلُّ مَا عَلَيَّ فِعْلُهُ هُوَ التَّفْكِيرُ فِي كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ لِلْمُؤَنِ. وَيَبْدُو أَنَّ فُرْصَتِي فِي النَّجَاةِ لَمْ تَضِعْ بَعْدُ.»

انْتَظَرْتُ تَرَاجُعَ الْمَدِّ، فَكَانَتِ الْمِيَاهُ شِبْهَ ضَحْلَةٍ بِمَا يُتِيحُ لِيَ السَّيْرَ إِلَى السَّفِينَةِ. نَزَعْتُ مُعْظَمَ مَلَابِسِي لِكَيْ أُبْقِيَهَا جَافَّةً، وَكُنْتُ خَائِفًا مِنَ الْمِيَاهِ، لَكِنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْوُصُولِ لِلسَّفِينَةِ. فَابْتَلَعْتُ مَخَاوِفِي وَبَدَأْتُ السَّيْرَ. وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ الْمِيَاهُ عَمِيقَةً وَصَعُبَ الْمَشْيُ فِيهَا، سَبَحْتُ بَاقِي الْمَسَافَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ حَبْلٌ يَتَدَلَّى مِنْ جَانِبِ السَّفِينَةِ، فَاسْتَخْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ إِلَى السَّطْحِ.

أَخَذْتُ وَقْتِي وَنَظَرْتُ فِي أَرْجَاءِ السَّفِينَةِ الَّتِي رَسَتْ تَقْرِيبًا بِكَامِلِهَا عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ. وَكَانَ الْمَخْزَنُ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ، نِصْفُهُ مُبَلَّلٌ بِالْكَامِلِ، بَيْنَمَا بَقِيَ النِّصْفُ الْآخَرُ جَافًّا تَمَامًا. وَلِحُسْنِ الْحَظِّ، احْتَوَى النِّصْفُ الْجَافُّ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤَنِ. فَنَزَلْتُ إِلَى الْقِسْمِ الَّذِي كَانَ يُوجَدُ فِيهِ الْخُبْزُ وَأَكَلْتُ بِسُرْعَةٍ بَعْضَ الْبَسْكَوِيتِ، وَمَا إِنْ تَوَقَّفَتْ مَعِدَتِي عَنِ الْقَرْقَرَةِ، بَدَأْتُ فِي جَمْعِ أَشْيَاءَ أَدْرَكْتُ أَنَّنِي سَأَحْتَاجُهَا.

اسْتَخْدَمْتُ كُلَّ الْخَشَبِ وَالْحِبَالِ الزَّائِدَيْنِ، مِمَّا تَمَكَّنْتُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ طَوْفٍ صَغِيرٍ كَيْ أَنْقُلَ الْمُؤَنَ مِنَ السَّفِينَةِ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ. وَبَعْدَ تَجْرِبَتِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، كَانَ مُلَائِمًا لِحَمْلِ حَتَّى أَثْقَلِ الْأَشْيَاءِ. وَبِدَايَةً، أَنْقَذْتُ الْكَلْبَ الَّذِي كَانَ مَعَنَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَكَانَتْ مُعْجِزَةً أَنَّهُ نَجَا مِنَ الْعَاصِفَةِ بِأَيِّ حَالٍ!

أَتْلَفَتِ الْمِيَاهُ الْعَدِيدَ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِ الْبَحَّارَةِ الشَّخْصِيَّةِ؛ لِذَا قَرَّرْتُ اسْتِخْدَامَ صَنَادِيقِهِمْ كَيْ أَخْزِنَ طَعَامِي وَأَجْمَعَهُ. فَكَانَ لَدَيَّ الْخُبْزُ وَالْأُرْزُ وَالْجُبْنُ وَلَحْمُ الْمَاعِزِ وَالْقَلِيلُ مِنَ

الْحُبُوبِ الْأُورُوبِّيَّةِ. وَأَفْسَدَتِ الْفِئْرَانُ الْقَمْحَ، مِمَّا أَحْبَطَنِي وَلَكِنْ لَا يَسَعُنِي فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ حِيَالَ ذَلِكَ الْآنَ.

وَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِي: «أَتَمَنَّى أَنْ يَظَلَّ الْبَحْرُ هَادِئًا لِمُدَّةٍ تُتِيحُ لِيَ الْعَوْدَةَ.» وَلِذَا، لَا مَزِيدَ مِنَ التَّبَاطُؤِ. وَجَدْتُ أَيْضًا مَلَابِسَ، وَصُنْدُوقَ نَجَّارٍ وَبَعْضَ الْأَسْلِحَةِ.

وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ: «هَذَا يَكْفِي لِلْيَوْمِ، وَحَانَ وَقْتُ الذَّهَابِ.» وَبِوَاسِطَةِ مِجْدَافَيْنِ مَكْسُورَيْنِ وَجَدْتُهُمَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، جَدَّفْتُ بِنَفْسِي مُتَحَرِّكًا نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَلَكِنَّ الصُّخُورَ أَمَامَ الشَّاطِئِ حَيْثُ رَسَوْتُ الْبَارِحَةَ كَانَتْ خَطِرَةً جِدًّا. فَلِكَيْ أَرْسُوَ بِالطَّوْفِ فِي سَلَامٍ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ جَدْوَلًا صَغِيرًا أَوْ نَهْرًا.

فَكَّرْتُ بِتَعَقُّلٍ: «لَا بُدَّ أَنَّ أَيًّا مِنْهُمَا يُوجَدُ بِالْجِوَارِ.» لِذَا جَدَّفْتُ بَعِيدًا عَنْ شَاطِئِي. وَكَانَ الْبَحْرُ لَا يَزَالُ هَادِئًا، حَمْدًا لِلهِ. وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ فِي صَالِحِي، لَكِنَّنِي عَرَفْتُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَغَيَّرَ فِي لَحْظَةٍ. وَتَلَاعَبَ الْبَحْرُ بِالطَّوْفِ مِنَ الْخَلْفِ وَالْأَمَامِ، وَاسْتَعَنْتُ بِقَدَمَيَّ لِأَتَشَبَّثَ بِقُوَّةٍ بِحَمُولَتِي. نَبَحَ الْكَلْبُ، وَلَمْ يَكُنْ بِوُسْعِي تَحَمُّلُ خَسَارَةِ أَيِّ شَيْءٍ؛ لِذَا حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ فِي شِدَّةِ الْحِرْصِ.

جَدَّفْتُ فِي الْأَرْجَاءِ حَتَّى وَجَدْتُ نَهْرًا، ثُمَّ اسْتَغْرَقْتُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ لِأَجِدَ مَكَانًا مُنَاسِبًا لِإِرْسَاءِ الطَّوْفِ. وَمَا إِنْ سَحَبْتُ كُلَّ أَشْيَائِي إِلَى الشَّاطِئِ، أَمَّنْتُ الطَّوْفَ كَيْ أَسْتَعْمِلَهُ فِي الْغَدِ. وَأَمَّا الْخُطْوَةُ الْهَامَّةُ التَّالِيَةُ، فَكَانَتْ إِيجَادَ مَكَانٍ آمِنٍ لِتَخْزِينِ كُلِّ شَيْءٍ.

قَفَزَ الْكَلْبُ عَنِ الطَّوْفِ تَقْرِيبًا فِي الْحَالِ، وَبَدَأَ يَكْتَشِفُ وَيَشْتَمُّ كُلَّ شَيْءٍ يَرَاهُ، وَسَلَّحْتُ نَفْسِي بِمُسَدَّسٍ وَبَعْضِ الْبَارُودِ، وَكَانَ هَدَفِي إِيجَادَ مَأْوًى أَيًّا مَا كَانَ، مَأْوًى أَكْثَرَ رَاحَةً مِنَ الشَّجَرَةِ!

لَاحَظْتُ وُجُودَ تَلٍّ صَغِيرٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، وَكَانَ يَبْعُدُ قُرَابَةَ مِيلٍ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يُمْكِنُنِي الرُّؤْيَةُ بِصُورَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الْأَعْلَى هُنَاكَ.» وَمَعَ الْكَلْبِ فِي رِفْقَتِي، بَدَأْتُ رِحْلَتِي فِي هَذَا الِاتِّجَاهِ.

قُلْتُ لَهُ: «حَسَنًا، سَتَحْتَاجُ إِلَى اسْمٍ إِذَا كُنَّا سَنَغْدُو صَدِيقَيْنِ، فَبِمَاذَا أَدْعُوكَ؟» نَبَحَ الْكَلْبُ بِالْإِجَابَةِ، وَضَحِكْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ يَوْمَيْنِ: «عَرَفْتُ. فَسَأَدْعُوكَ شيبي؛ لِأَنِّي أَنْقَذْتُكَ مِنْ عَلَى السَّفِينَةِ.»

سِرْنَا لِفَتْرَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحَ الطَّقْسُ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، وَعِنْدَمَا بَلَغْتُ قِمَّةَ التَّلِّ، رَأَيْتُ أَنَّنِي عَلَى جَزِيرَةٍ، وَلَا يُوجَدُ أَيُّ بَشَرٍ سِوَايَ فِي الْأَرْجَاءِ، عَلَى الْأَقَلِّ لَمْ أَرَ أَيًّا منهم بِأَيِّ حَالٍ. وَكَانَ يُوجَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الطُّيُورِ الْجَمِيلَةِ، لَكِنَّنِي لَمْ أَتَعَرَّفْ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ بِعَيْنِهِ مِنْهَا.

وَبَعْدَ اسْتِكْشَافِ الْجَزِيرَةِ بِسُرْعَةٍ، هَبَطْتُ عَائِدًا إِلَى الطَّوْفِ، وَفَكَكْتُ مُتَعَلَّقَاتِي وَرَتَّبْتُهَا. وَمَا أَثَارَ دَهْشَتِي، أَنَّ هَذَا اسْتَغْرَقَ مِنِّي بَاقِيَ الْيَوْمِ. أَكَلْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْبَسْكَوِيتِ، ثُمَّ صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ الْكُوخَ مُسْتَخْدِمًا صَنَادِيقَ الْبَحَّارَةِ، فَلَمْ أُرِدْ أَنْ يَلْتَهِمَنِي أَيٌّ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْمَسَاءِ!

الفصل الثالث عشر

مَلَاذٌ مُؤَقَّتٌ

رَجَعْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي مُبَاشَرَةً إِلَى السَّفِينَةِ لِأَرَى مَاذَا أَيْضًا يُمْكِنُنِي الِاحْتِفَاظُ بِهِ. وَكَانَ مِنَ الْمُهِمِّ تَجْمِيعُ كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ يُمْكِنُنِي جَمْعُهُ، فَرُبَّمَا تَعْصِفُ عَاصِفَةٌ أُخْرَى فِي أَيِّ دَقِيقَةٍ وَتَجْرِفُ السَّفِينَةَ بَعِيدًا، وَلَا أُرِيدُ إِضَاعَةَ فُرْصَتِي فِي الِاحْتِفَاظِ بِشَيْءٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَجْعَلَ حَيَاتِي أَفْضَلَ، بَيْنَمَا لَا زِلْتُ مُحَاصَرًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَذَهَبْتُ مُجَدَّدًا عِنْدَمَا كَانَ التَّيَّارُ مُنْخَفِضًا. وَسَحَبْتُ الطَّوْفَ خَلْفِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَسْبَحُ بَعِيدًا إِلَى السَّفِينَةِ، ثُمَّ رَبَطْتُهُ بِنَفْسِ الْحَبْلِ الَّذِي اسْتَخْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ.

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، قَرَّرْتُ الِاسْتِعَانَةَ بِطَوْفٍ ثَانٍ؛ لِذَا صَنَعْتُ طَوْفًا آخَرَ مُسْتَعِينًا بِالْأَوَّلِ كَنَمُوذَجٍ. وَجَمَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَيْنِ الطَّوْفَيْنِ! فَأَخَذْتُ مَسَامِيرَ وَالْمَزِيدَ مِنَ الْبَنَادِقِ وَبَعْضَ الْمَلَابِسِ وَالْمَزِيدَ مِنَ الطَّعَامِ وَجَمِيعَ مُسْتَلْزَمَاتِ الْبِنَاءِ الَّتِي أَمْكَنَنِي الْعُثُورُ عَلَيْهَا، بَلْ أَخَذْتُ أَيْضًا الشِّرَاعَ الِاحْتِيَاطِيَّ. وَعِنْدَمَا امْتَلَأَ الطَّوْفَانِ جَدَّفْتُ عَائِدًا تِجَاهَ النَّهْرِ وُصُولًا إِلَى مَكَانِ اخْتِبَائِي.

وَعِنْدَمَا عُدْتُ، وَجَدْتُ قِطَّةً بَرِّيَّةً جَالِسَةً عَلَى أَحَدِ صَنَادِيقِي!

فَصِحْتُ: «ابْتَعِدِي! اذْهَبِي! اتْرُكِي صُنْدُوقِي وَشَأْنَهُ!» لَكِنَّ الْقِطَّةَ لَمْ تَتَزَحْزَحْ، وَفَقَطْ نَظَرَتْ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ كَأَنَّهَا تَقُولُ: «عَلَيْكَ أَنْ تُحَاوِلَ بِأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَيِّدُ!»

قَذَفْتُ بِقِطْعَةِ بَسْكَوِيتٍ بِاتِّجَاهِ الْغَابَاتِ، وَنَجَحَتِ الْحِيلَةُ! فَرَكَضَتِ الْقِطَّةُ خَلْفَهَا وَأَكَلَتْهَا فِي قَضْمَةٍ وَاحِدَةٍ سَرِيعَةٍ. وَمِنْ مَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْقِطَّةَ لَمْ تُتْلِفْ شَيْئًا، بَلْ فِي الْحَقِيقَةِ، لَمْ يَأْتِ أَيُّ حَيَوَانٍ آخَرَ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ هَذَا مُؤَشِّرًا طَيِّبًا.

كَانَتْ خُطْوَتِي التَّالِيَةُ هِيَ بِنَاءَ خَيْمَةٍ مُنَاسِبَةٍ؛ لِذَا قَطَعْتُ أَوَّلًا بَعْضَ الْأَغْصَانِ مِنَ الشَّجَرِ الْمُحِيطِ بِمُخَيَّمِي الْجَدِيدِ، ثُمَّ اسْتَخْدَمْتُ الشِّرَاعَ الِاحْتِيَاطِيَّ مَعَ بَعْضِ الْحِبَالِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَى السَّفِينَةِ. وَبِمُجَرَّدِ الِانْتِهَاءِ مِنَ الْخَيْمَةِ، أَحْضَرْتُ لِلدَّاخِلِ كُلَّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يَفْسُدَ إِذَا أَصْبَحَ الْمَكَانُ شَدِيدَ الرُّطُوبَةِ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ مِنَ الشَّمْسِ. وَأَخِيرًا، صَنَعْتُ مَضْجَعًا أَكْثَرَ رَاحَةً بِالِاسْتِعَانَةِ بِأُرْجُوحَتَيْنِ شَبَكِيَّتَيْنِ تَسَنَّى لِي أَخْذُهُمَا مِنَ السَّفِينَةِ. وَأَسْلَمَنِي الْعَمَلُ الْمُضْنِي وَالْمَكَانُ الْمُرِيحُ إِلَى النَّوْمِ عَلَى الْفَوْرِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَعَلَى مَدَى الْأُسْبُوعَيْنِ التَّالِيَيْنِ، اسْتَمْرَرْتُ عَلَى نَفْسِ مِنْوَالِ أَوَّلِ يَوْمَيْنِ، فَفِي الصَّبَاحِ، وَبَعْدَمَا يَهْدَأُ التَّيَّارُ، أَسْبَحُ إِلَى السَّفِينَةِ سَاحِبًا خَلْفِي طَوْفِيَّ، وَأَبْحَثُ مِنْ مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ حَتَّى مُؤَخِّرَتِهَا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ رُبَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا. وَبَعْدَ قَضَاءِ نَحْوِ السَّاعَتَيْنِ فِي تَجْمِيعِ الْمُؤَنِ، أُجَدِّفُ عَائِدًا بِالطَّوْفَيْنِ لِلشَّاطِئِ. وَعَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ وَجَدْتُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْأَكْثَرَ إِثَارَةً، وَمِنْهَا مِقَصٌّ (وَكَانَ عَظِيمَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَقِيقَةِ!) وَشَفْرَةُ حِلَاقَةٍ، حَتَّى يُمْكِنَنِي الْحِلَاقَةُ، كَمَا وَجَدْتُ صُنْدُوقًا بِهِ مِنَ الذَّهَبِ مَا تَزِيدُ قِيمَتُهُ عَنْ ثَلَاثِينَ جُنَيْهًا، وَلَمْ أَرَ لَهُ أَيَّ نَفْعٍ، إِلَّا أَنَّنِي أَخَذْتُهُ مَعِي عَلَى أَيِّ حَالٍ، بِالرُّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ مَكَانٍ أُنْفِقُهُ فِيهِ!

وَفِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ مِنَ الْأُسْبُوعَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ انْقَلَبَ الطَّقْسُ فِي النِّهَايَةِ، وَكَانَتْ بِالْفِعْلِ آخِرَ رِحْلَةٍ لِي إِلَى السَّفِينَةِ، فَلَدَيَّ تَقْرِيبًا كُلُّ شَيْءٍ يَمْكِنُنِي اسْتِخْدَامُهُ، بَلْ وَأَكْثَرُ. هَبَّتِ الرِّيَاحُ سَرِيعًا، وَكَانَتِ الْبِضَائِعُ ثَقِيلَةً بَيْنَمَا كُنْتُ أُجَدِّفُ جَاهِدًا لِلْعَوْدَةِ إِلَى الشَّاطِئِ، وَعَرَفْتُ حِينَهَا أَنَّ لَدَيَّ فُرْصَةً وَاحِدَةً فَقَطْ لِلْعَوْدَةِ قَبْلَ الْعَاصِفَةِ؛ لِذَا وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى مَدى عِدَّةِ أَسَابِيعَ، كُنْتُ أُجَدِّفُ لِلنَّجَاةِ بِحَيَاتِي. فَاضَتْ مِيَاهُ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ فَوْقَ الطَّوْفَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ الْوَقْتُ حَتَّى لِلتَّفْكِيرِ فِي مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ؛ فَجَدَّفْتُ وَجَدَّفْتُ، وَكَانَ عَلَيَّ الْعَوْدَةُ.

لَمْ تَذْهَبْ مَجْهُودَاتِي سُدًى، وَعَمَّا قَلِيلٍ أَصْبَحْتُ مُرْتَاحًا فِي خَيْمَتِي، أَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ الْمَطَرِ يَهْطِلُ مِنْ حَوْلِي. ضَرَبَتِ الرِّيَاحُ شِرَاعَ الْخَيْمَةِ بِقُوَّةٍ، وكَانَ بِإِمْكَانِي سَمَاعُ تَأَرْجُحِ

الْأَشْجَارِ، وَحَفِيفِ أَوْرَاقِهَا. وَلَا بُدَّ أَنَّ الْعَاصِفَةَ اسْتَمَرَّتْ طَوَالَ اللَّيْلِ، لَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْهَا، فَقَدْ نِمْتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي خَيْمَتِي الَّتِي اصْطَنَعْتُهَا بِيَدَيَّ. وَاسْتَيْقَظْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي وَجَرَيْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ لِأَجِدَ أَنَّ السَّفِينَةَ اخْتَفَتْ تَمَامًا!

فَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِي: «حَسَنًا، مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْحَظَّ ظَلَّ يُرَافِقُنِي لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ بِمَا يَكْفِي.» وَقَفْتُ هُنَاكَ لِدَقِيقَةٍ أَنْظُرُ إِلَى الْمَكَانِ الْخَاوِي وَأُفَكِّرُ فِي السَّفِينَةِ وَالطَّاقَمِ وَقُبْطَانِنَا. وَفَكَّرْتُ كَذَلِكَ كَمْ كَانَتْ حَيَاتِي مُخْتَلِفَةً مِنْ أُسْبُوعَيْنِ فَقَطْ.

الفصل الرابع عشر

الشَّهْرُ الأَوَّلُ

الْآنَ، وَقَدِ انْتَهَيْتُ مِنْ رِحْلَاتِي الْيَوْمِيَّةِ مِنْ وَإِلَى السَّفِينَةِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَبْنِيَ مَأْوًى أَكْثَرَ دَوَامًا. وَكَانَ أَهَمُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي وَقْتَئِذٍ هُوَ ضَمَانَ أَمْنِي وَسَلَامَتِي مِنْ أَيِّ حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ أَوْ أَهْلِ الْمِنْطَقَةِ.

فَتَسَاءَلْتُ: «هَلْ سَيَكُونُ مِنَ الْأَفْضَلِ بِنَاءُ خَيْمَةٍ أَكْثَرَ دَوَامًا؟ أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْأَذْكَى الْعُثُورُ عَلَى كَهْفٍ أَعِيشُ فِيهِ؟» جَلَسْتُ عَلَى الشَّاطِئِ وَفَكَّرْتُ مَلِيًّا فِي كِلَا الْخَيَارَيْنِ وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَظُنُّ أَنَّنِي أَحْتَاجُ كِلَيْهِمَا: كَهْفًا لِلتَّخْزِينِ وَخَيْمَةً أَفْضَلَ.»

اتَّسَمَ الشَّاطِئُ حَيْثُ أَقَمْتُ الْمُخَيَّمَ بِالْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ وَعَدَمِ قُرْبِهِ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُهِمِّ أَيْضًا أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ الْبَحْرِ، كَيْ أَتَرَقَّبَ مُرُورَ السُّفُنِ.

سِرْتُ أَنَا وَشِيبِي طَوِيلًا حَوْلَ الْجَزِيرَةِ، وَبَعْدَ قُرَابَةِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، وَجَدْنَا سَهْلًا جَمِيلًا، أَرْضِيَّتُهُ عُشْبِيَّةٌ، عَلَى جَانِبِ تَلٍّ صَاعِدٍ، بَدَا لِي مِثَالِيًّا! وَاسْتَغْرَقَ نَقْلُ جَمِيعِ مُؤَنِي لِمُخَيَّمِي الْجَدِيدِ عِدَّةَ أَيَّامٍ. وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْبَقَاءَ هُنَاكَ حَتَّى أَنْتَهِيَ تَمَامًا مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَرَكْتُ شِيبِي هُنَاكَ فِي مُعْظَمِ اللَّيَالِي لِيَحْرُسَ أَشْيَائِي إِلَى أَنِ انْتَهَيْتُ مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمُخَيَّمِ الْأَوَّلِ.

أَوَّلًا، بَنَيْتُ حِصْنًا حَوْلَ الْمِنْطَقَةِ الَّتِي خَطَّطْتُ لِإِقَامَةِ خَيْمَتِي بِهَا، فَأَخَذْتُ أَشْجَارًا صَغِيرَةً مِنَ الْغَابَةِ وَزَرَعْتُهَا حَوْلَ كَهْفٍ صَغِيرٍ وَجَدْتُهُ، ثُمَّ بَنَيْتُ جُدْرَانًا دَاخِلَ خَطِّ الْأَشْجَارِ مُبَاشَرَةً. وَبَدَلًا مِنْ بِنَاءِ بَابٍ لِلْمُرُورِ عَبْرَ جِدَارِي، صَنَعْتُ سُلَّمًا؛ فَلَا يُمْكِنُكَ التَّخَلِّي عَنِ الْحَذَرِ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ هَكَذَا شَعَرْتُ. وَلَكِنَّ شِيبِي كَانَ فِي حَاجَةٍ لِلدُّخُولِ

وَالْخُرُوجِ هُوَ الْآخَرُ؛ لِذَا صَنَعْتُ لَهُ فَجْوَةً فِي الْجِدَارِ لِيَأْتِيَ وَيَذْهَبَ كَيْفَمَا يُحِبُّ، وَأَخْفَيْتُهَا بِسَعَفِ النَّخِيلِ كَيْ لَا يُلَاحِظَهَا أَحَدٌ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ وَجَدْتُ فِي حِصْنِي حِمَايَةً كَبِيرَةً وَرَاحَةَ بَالٍ.

بَعْدَ ذَلِكَ، صَنَعْتُ هَيْكَلًا أَكْثَرَ مَتَانَةً لِرَفْعِ قِمَّةِ الْخَيْمَةِ. وَبَنَيْتُ بَيْتِيَ الْجَدِيدَ قرب الْكَهْفِ، وَكُنْتُ أَسْتَخْدِمُهُ لِتَخْزِينِ الطَّعَامِ؛ وَبِذَلِكَ كُنْتُ مَشْغُولًا طَوَالَ الْأَيَّامِ. وَبِمُرُورِ كُلِّ يَوْمٍ، ازْدَدْتُ أَمَلًا فِي النَّجَاةِ. وَفِي النِّهَايَةِ أَصْبَحَتْ جَمِيعُ مُؤَنِي مُرَتَّبَةً وَمُنَظَّمَةً جِدًّا؛ فَفَصَلْتُ الْبَارُودَ فِي مَجْمُوعَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ (لِأَحْفَظَهُ فِي أَمَانٍ مِنَ الْبَرْقِ!) وَكَذَلِكَ خَزَّنْتُ طَعَامِي بِعِنَايَةٍ كَيْ لَا يَفْسُدَ.

فِي هَذِهِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى كُنْتُ أَذْهَبُ مُصْطَحِبًا كَلْبِي وَبُنْدُقِيَّتِي لِصَيْدِ الطَّعَامِ كُلَّ صَبَاحٍ، فَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَاعِزِ الْبَرِّيِّ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَصْبَحَ لَحْمُ الْمَاعِزِ جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنْ غِذَائِي الْمُعْتَادِ. وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، أَبْلَيْتُ بَلَاءً حَسَنًا؛ فَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ بِاسْتِطَاعَتِي بِنَاءَ حِصْنٍ أَوِ اصْطِيَادَ طَعَامٍ؟ وَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ لَدَيَّ الْقُوَّةَ وَالْإِرَادَةَ لِلنَّجَاةِ؟ فَقَدْ كُنْتُ مَحْظُوظًا، إِذْ لَدَيَّ الْغِذَاءُ وَالْمَاءُ وَالْمَأْوَى؛ أَيْ إِنَّ الِاحْتِيَاجَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ كَانَتْ مُتَاحَةً.

وَمَعَ تَأْمِينِ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ، بَقِيَ لَدَيَّ الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ لِأُفَكِّرَ، وَكَانَ أَقْسَى شَيْءٍ فِي وُجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ هُوَ قَضَاءُ الْأَوْقَاتِ الطَّوِيلَةِ وَحْدِي، فَسَبَحَتْ بِي أَفْكَارِي صَوْبَ عَائِلَتِي، وَكَانَ مِنَ الْمُحْبِطِ التَّفْكِيرُ فِي أَنَّنِي قَدْ لَا أَرَاهُمْ ثَانِيَةً أَبَدًا. وَتَذَكَّرْتُ رِفَاقِي الْبَحَّارَةَ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِثْلُ حَظِّي فَغَرِقُوا، وَقَضَيْتُ الْوَقْتَ جَالِسًا وَبَاكِيًا فَحَسْبُ. وَبِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْوَرَقِ الصَّغِيرِ وَالْحِبْرِ مِمَّا اسْتَطَعْتُ الْحُصُولَ عَلَيْهِ مِنَ السَّفِينَةِ، بَدَأْتُ فِي تَسْجِيلِ يَوْمِيَّاتِي. وَفِي الْأَيَّامِ الَّتِي اسْتَمَرَّ فِيهَا نَزِيفُ قَلْبِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ خَسِرْتُهُ أَوْ تَخَلَّيْتُ عَنْهُ، كَانَتِ الْكِتَابَةُ تُقَدِّمُ لِي يَدَ الْعَوْنِ.

فِي ذَلِكَ الْحِينِ، كَانَ أُكْتُوبَرُ عَلَى وَشْكِ الِانْتِهَاءِ تَقْرِيبًا، وَكُنْتُ قَدِ ابْتَعَدْتُ عَنِ الْبَرَازِيلِ مُنْذُ شَهْرَيْنِ. فَبَعْدَ هُبُوطِي عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ التَّقْوِيمَ عَلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ بِجِوَارِ الشَّاطِئِ، وَحَفَرْتُ كُلَّ يَوْمٍ كَخَطٍّ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ شَطَبْتُ عَلَى الْأَيَّامِ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ أُسْبُوعٍ. فَقَدْ غَادَرْنَا الْبَرَازِيلَ فِي الأول من سِبْتَمْبِرَ، وَأَعْلَمُ أَنَّنَا ظَلَلْنَا فِي

الْبَحْرِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا قَبْلَ ارْتِطَامِنَا بِهَذَا الْمُرَتَفَعِ الرَّمْلِيِّ، وَدَلَّتِ الشَّجَرَةُ عَلَى أَنَّنِي ظللت عَلَى الْجَزِيرَةِ لِشَهْرٍ وَاحِدٍ؛ لِذَا قُمْتُ بِعَمَلِ تَقْوِيمٍ جَدِيدٍ بِدَايَةً مِنْ ٣٠ سِبْتَمْبرَ، وَهُوَ يَوْمُ وُصُولِي إِلَى جَزِيرَتِي، وَسَيُعْتَبَرُ يَوْمَ ذِكْرَى وُصُولِي. فَأَصْبَحْتُ أَعِي الْيَوْمَ مِنَ الْغَدِ، الْجُمُعَةَ مِنَ الْأَحَدِ، وَالْإِثْنَيْنِ مِنَ الْأَرْبِعَاءِ، وَكَانَ هَذَا أَيْضًا مِنْ دَوَاعِي رَاحَةِ بَالِي.

الفصل الخامس عشر

الْحَيَاةُ عَلَى جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ

عَلَى مَدَى الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، عَمِلْتُ جَاهِدًا لِتَحْسِينِ مُخَيَّمِي، حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى تَوْسِعَتِهِ لِتَخْزِينِ جَمِيعِ مُؤَنِي. وَبَعْدَ عِدَّةِ مُحَاوَلَاتٍ صَنَعْتُ مِنْضَدَةً وَكُرْسِيًّا؛ مِمَّا أَذْهَلَنِي تَمَامًا وَقْتَهَا، فَلَمْ أَكُنْ قَطُّ أُجِيدُ أَعْمَالَ النِّجَارَةِ. وَعَلَّمَنِي الْوَقْتُ وَالْمَجْهُودُ أَنِّي قَادِرٌ عَلَى الْبِنَاءِ، أَوِ النَّحْتِ، أَوْ عَمَلِ أَيِّ شَيْءٍ طَالَمَا عَزَمْتُ عَلَى عَمَلِهِ. وَرُبَّمَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي صَنَعْتُهَا تَبْدُو غَيْرَ مَصْقُولَةٍ، لَكِنَّهَا عَلَى الْأَقَلِّ كَانَتْ صَالِحَةً لِلِاسْتِخْدَامِ، وَكَانَ هَذَا أَهَمَّ كَثِيرًا فِي رَأْيِي.

اتَّسَمَتْ أَيَّامِي الْآنَ بِرُوتِينٍ وَاضِحٍ؛ فَأَنَا أَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ، حَتَّى زُهَاءِ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْجَوْلَاتُ لِلتَّمْرِينِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ كَذَلِكَ لِلصَّيْدِ. وَلَاحَظْتُ وُجُودَ بَعْضِ الطُّيُورِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي يُمْكِنُنِي أَكْلُهَا، بِالْإِضَافَةِ لِلْمَاعِزِ. وَكَانَ مِنَ الْمُهِمِّ بِالنِّسْبَةِ لِي الِاسْتِفَادَةُ مِنْ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أَصْطَادُهَا؛ فَاسْتَخْدَمْتُ جُلُودَهَا، وَأَكَلْتُ لُحُومَهَا، وَلَمْ أَقْتُلْ أَبَدًا عَلَى سَبِيلِ الرِّيَاضَةِ: فَالْبَارُودُ كَانَ عَزِيزًا جِدًّا، كَمَا أَنَّ ضَمِيرِي لَمْ يَكُنْ لِيَرْضَى بِهَذَا عَلَى أَيِّ حَالٍ.

كَانَ الطَّقْسُ حَارًّا، فَبَعْدَ جَوْلَتِيَ الطَّوِيلَةِ فِي الصَّبَاحِ، عَادَةً مَا كُنْتُ أَغْفُو. وَمَا إِنْ تَبْدَأُ الشَّمْسُ فِي الْهُبُوطِ، أَقُومُ بِإِعْدَادِ الْعَشَاءِ وَالْبَدْءِ فِي الْعَمَلِ عَلَى مَشَارِيعِي الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَنَوِّعَةِ؛ فَصَنَعْتُ شُمُوعًا، وَكَتَبْتُ مُذَكِّرَاتِي، وَنَحَتُّ أَوَانِيَ لِلطَّعَامِ، وَفَعَلْتُ أَيَّ شَيْءٍ لِيَمْضِيَ الْوَقْتُ.

وَفِي إِحْدَى جَوْلَاتِي، سَعِدْتُ بِاكْتِشَافِي لِشَجَرَةِ الْخَشَبِ الْحَدِيدِيِّ فِي الْغَابَةِ.

قُلْت لِنَفْسِي: «مِثْلُ هَذَا الْخَشَبِ الْقَوِيِّ يُمْكِنُنِي اسْتِخْدَامُهُ لِعَمَلِ مِجْرَافٍ، بَلْ حَتَّى لِعَمَلِ مِسَنٍّ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي شَحْذِ أَدَوَاتِي.»

وَكَانَ خَشَبًا قَوِيًّا بِحَقٍّ! اسْتَغْرَقْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً فِي تَقْطِيعِهِ بِفَأْسِي، كَيْ أَقْطَعَ وَلَوْ جُزْءًا صَغِيرًا مِنْ خَشَبِ الشَّجَرَةِ. وَلَكِنَّ الْأَدَوَاتِ الَّتِي صَنَعْتُهَا لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا فِي رَأْيِي، وَأَثْمَرَتْ كُلُّ جُهُودِي الْمُضْنِيَةِ.

انْقَضَى الْوَقْتُ؛ فَفِي غَمْضَةِ عَيْنٍ مَرَّ مَا يَزِيدُ عَنْ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ وَأَنَا عَلَى الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ حَلَّ الْمَوْسِمُ الْمُمْطِرُ. وَكَانَ الطَّقْسُ يُعْطِينِي إِشَارَاتٍ بِاحْتِمَالِيَّةِ حُلُولِ مَوْسِمٍ مُمْطِرٍ؛ لِذَا قَضَيْتُ وَقْتًا طَوِيلًا فِي الشُّهُورِ السَّابِقَةِ لَهُ مُحَاوِلًا بِنَاءَ غِطَاءٍ أَفْضَلَ لِمَا تُسَمَّى «خَيْمَتِي». وَسُرْعَانَ مَا تَحَوَّلَ الْهَيْكَلُ كُلُّهُ لِيَغْدُوَ بِنَاءً مُلَائِمًا، ذَا جُدْرَانٍ، وَبَابٍ، وَسَقْفٍ جَيِّدٍ مَتِينٍ. وَنَحَتُّ الْأَلْوَاحَ الْخَشَبِيَّةَ لِلسَّقْفِ ثُمَّ اسْتَخْدَمْتُ سَعَفَ النَّخِيلِ كَمَادَةٍ عَازِلَةٍ لِلْمَطَرِ. وَمَعَ هَذَا، فَكَانَ الْمَاءُ لَمْ يَزَلْ يَتَسَرَّبُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، وَحِينَهَا كُنْتُ أُوثِرُ النَّوْمَ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ!

وِمْنَ يَنَايِرَ حَتَّى أَبْرِيلَ عَمِلْتُ عَلَى تَحْصِينِ سِيَاجِي، فَكُلَّمَا أَصْبَحَ أَقْوَى ازْدَادَ شُعُورِي بِالْأَمَانِ. وَأَضَفْتُ عَدَدًا مِنَ التَّحْسِينَاتِ الْأُخْرَى لِمَنْزِلِي هَذَا الْمَوْسِمَ، وَعَمَّا قَرِيبٍ أَضْحَيْتُ مُسْتَرِيحًا أَيَّمَا رَاحَةٍ، فَأَضَاءَتْ لَيَالِيَّ الشُّمُوعُ، وَكَانَ مَنْزِلِي جَافًّا (فِي مُعْظَمِهِ)، وَلَدَيَّ شِيبِي لِيَبْقَى بِرِفْقَتِي.

اسْتَيْقَظْتُ ذَاتَ صَبَاحٍ فِي ذَاتِ شَهْرِ أَبْرِيلَ مَشْدُوهًا؛ إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ بَعْضَ الْأَطْعِمَةِ التَّالِفَةِ الَّتِي أَلْقَيْتُ بِهَا بَعِيدًا أَنْبَتَتْ، فَكَانَتْ هُنَاكَ سِيقَانٌ خَضْرَاءُ رَائِعَةٌ فِي سَهْلِي. وَفَرِحْتُ بِاكْتِشَافِي أَنَّهَا شَعِيرٌ وَأُرْزٌ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الْمَحَاصِيلُ صِحِّيَّةً تَمَامًا! وَتَذَكَّرْتُ إِلْقَائِي لِلْحُبُوبِ فِي كَافَّةِ أَرْجَاءِ الْمَكَانِ لِكَيْ أُفْرِغَ الْحَقِيبَةَ، حَيْثُ احْتَجْتُ إِلَيْهَا لِأُخَزِّنَ بِهَا بَارُودِي. وَبِالتَّأْكِيدِ الطَّبِيعَةُ مُذْهِلَةٌ! فَمَا كُنْتُ لِأَتَوَقَّعَ أَبَدًا أَنْ يَنْمُوَ طَعَامُ الدَّجَاجِ فِي مَرْجِي الْأَمَامِيِّ، وَلَكِنِّي فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ الْآنَ بَعْدَ وُجُودِهِ.

وَبِالتَّأْكِيدِ، كَانَ شَهْرُ أَبْرِيلَ مَلِيئًا بِالْمُفَاجَآتِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ جَمِيعُهَا سَارَّةً. فَذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كُنْتُ فِي كَهْفِي أُصَنِّفُ مُؤَنِي، بَدَأَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ فِي الِاهْتِزَازِ. وَكَانَ هُنَاكَ صَوْتُ تَصَدُّعٍ عَالٍ، وَبَدَأَتِ الْأَحْجَارُ فِي التَّسَاقُطِ مِنْ حَوْلِي، وَكُنْتُ مَرْعُوبًا وَجَرَيْتُ